المحاضرة الأولى: مفهوم النظرية

تمهيد:

تمثل النظرية إحدى أهم أدوات الممارسة العلمية، بل هي جوهرها، فكل علم من العلوم يسعى في بناء أطروحاته الفكرية إلى الاستعانة بالأطر النظرية التي يطورها من أجل شرح كيفية تصوره لموضوع العلم الذي يعالجه. تمتلك أغلب العلوم نظريات تحظى بالقبول بين الباحثين المنتمين إلى حقله، ويتم على الدوام إما اختبار هذه النظريات أو تعديلها أو نفيها، وبالتالي استبدالها بنظريات أخرى. وفي كل الأحوال، فإن وجود النظريات يمثل بشكل مستمر أداة الممارسة العلمية الأكثر شيوعا، سواء بالنسبة لحقل علوم المادة والطبيعة، أو بدرجة أقل صرامة بالنسبة لحقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

1. مفهوم النظرية:

هناك العديد من التعاريف التي تطلق على مفهوم النظرية، حيث يستخدم هذا المفهوم في مجال فلسفة العلم والممارسات العلمية بمعان عديدة. ويشير موريس أنجرس إلى أن النظرية بالنسبة للعلم هي بمثابة البوصلة للمكتشف، فهي تتيح له اختيار المسالك التي سيمر عبرها للوصول إلى الحقائق العلمية، وبواسطتها ينظم الملاحظات التي يجمعها ويبرّر الأدوات العلمية التي يستخدمها، إنها بمثابة "موجه للبحث"[1].

يقدم المعجم الفلسفي لأندريه لالاندعدة تعاريف للنظرية بأنها "بناء تأملي للفكر يربط نتائج بمبادئ"، وكذلك بأنها "بناء فرضي استنباطي يعكس رؤية العالم حول قضية متنازع حولها وتركيب كلي يسعى إلى تفسير عدد من الظواهر ويسلم بها كفرضية تحتمل الصدق أو التكذيب". ويشير لالاند إلى التعريف الإيجابي الذي يقدمه كلود برنارد بقوله بأن النظرية هي"الفرضية المحققة بعد ما جرى إخضاعها لرقابة المحكمة العقلية والنقد الاختباري، ولكن عليها أن تتطور دائما مع تقدم العلم لكي تظل صالحة"[2].

يرى كل من دوهرتي، بوس، لاروسا، شوم وغيرهم كثيرون بأن النظرية هي عملية التطوير والتنظيم المنسق للأفكار من أجل شرح الظواهر، وبأنها مجموعة الأفكار المنظمة والمترابطة والقابلة للاختبار الإمبريقي، والمصاغة من أجل شرح الظواهر[3].

---

[1]- موريس أنجرس: منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 55.

[2]- أندريه لالاند: المعجم الفلسفي، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الثاني، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ص 1455.

[3]- Theory:Whatitis and whyitis important. p. 1.

أما برايثوايت، بأنها مجموعة من القضايا التي تتخذ ترتيبا خاصا في النسق بحيث مترابطة منطقيا ومتميزة بالتدرج المنظم غير المتناقض، وتتشكل من القضايا العامة التي هي بمثابة مقدمات، والقضايا المستنبطة وتتمثل في النتائج[1].

يعرفها بسام المشاقبة بأنها "إطار فكري لعدد من التعميمات ذات العلاقة المشتركة، ويقدم هذا الإطار تفسيرا للظواهر العلمية والتنبؤ بها"[2]. وبالنسبة لموريس أنجرس، فيعرف النظرية بأنها "مجموعة من المصطلحات والتعريفات والافتراضات لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظمة للظاهرة، وذلك بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها"[3].

2. وظائف النظرية:

بما أن النظرية تمثل في الأصل جوهر الممارسة العلمية السليمة والصحيحة، فإن وظائفها هي مجرد محاكاة لوظائف المنهج العلمي الصحيح، حيث تتماهى معها في الأهداف النهائية التي يرجى تحقيقها للإفادة منها فعليا في الواقع. ويمكن القول بأن أهم وظائف النظرية هي[4]:

أ. الوصف:

في نظر المدرسة الوضعية، فإن الوصف يمثل الوظيفة القاعدية للبحث العلمي، وبالتالي لأي محاولة لبناء نظرية. ويعتقد الوضعيون بأن مهمة العلم الذي يرفع شعار الموضوعية هي أن يقدم أوصافا للوقائع من أجل تسهيل معرفتها. وتتمثل مستويات الوصف الذي تسعى النظرية إلى إقامته في ثلاث: مستوى التصنيف، أي اكتشاف روابط ثابتة نسبيا ين الصفات والخصائص، ثم مستوى الترتيب، أي وضع الخصائص والسمات في درجات ومقادير يمكن ترتيبها على طول متصل، أما المستوى الثالث فيتعلق بكشف الارتباطات بين السمات والخصائص بالزيادة أو النقصان، الوجود أو بالعدم.

ب. التفسير:

إذا كان الوصف يكتفي تقديم صفات وخصائص الظاهرة ومحاولة تصنيفها، فإن وظيفة التفسير تبحث بشكل مباشر في العلاقات السببية والعلية التي تحكم عناصر الظاهرة محلّ التنظير. والمقصود بالعلية هنا هو الإجابة عن السؤال: لماذا تحدث الظاهرة؟ ولكن بطريقة علمية وضعية لا بطريقة فلسفية ميتافيزيقية قد تناقش الغايات. إن مهمة العلم على الدوام هي البحث عن الأسباب التي تؤدي غلى حدوث الظواهر أو الشروط والظروف المحددة التي تساعد على حدوثها. وعلى خلاف الوضعيين الذين يرون بان

---

[1]- علي ليلة: بناء النظرية الاجتماعية، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الاسكندرية،1992، ص 47.
[2]- بسام عبد الرحمن المشاقبة: نظريات الإعلام، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص ص 79-80.
[3]- موريس انجرس: مرجع سابق، ص 55.
[4]- صلاح قنصوه: فلسفة العلم، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص-ص 144-153.

الوصف هو الوظيفة القاعدية للعلم، يرى ون كيميني بأن التفسير هو الوظيفة الوحيدة للعلم، ذلك أنه يوفر افتراضات سببية يجرى على الدوام اختبارها، وهذا بالضبط هو ما يجعل المعرفة العلمية في حالة مستمرة من التقدم.

ج. التنبؤ:

لا يجري الحديث كثيرا عن وظيفة التنبؤ لأنها لا تمتلك قواعد معينة أو إجراءات دقيقة يجب التقيد بها، فهي في النهاية تحصيل حاصل لوظيفتي الوصف والتفسير. ويرى ماكس بلانك بأن وظيفة التنبؤ لها علاقة مباشرة بوظيفة التفسير، وأن إمكان التنبؤ بالحدث في المستقبل هو المقياس والمعيار لوجود العلة من عدمها، وقبل التساؤل عن علاقة العلية يجب التساؤل في نظره عن إمكانية التنبؤ. ويرى آخرون على غرار رايشنباخ بأن الوظيفة الأساسية للعلم هي التنبؤ، وبأن مجمل المعرفة العلمية ليست سوى أداة تمكننا من التنبؤ بما يحدث من ظواهر في الواقع.

د. التحكم:

يمثل التحكم أعلى وظائف النظرية من حيث القيمة، وهو ليس سوى وجها آخر لوظيفة التنبؤ، فنحن لا نتوقع حدوث الظواهر إلا لأننا نتحكم في تكرارها. يتمثل التحكم في إعادة بناء الظروف التي وقعت في نطاقها تلك التكرارات. بالمقابل، فإن التحكم يبرز القيمة الحقيقية للممارسة العلمية في حياة الإنسان، حيث يمكن من خلال هذه الوظيفة تطويع الممارسة العلمية لحل الكثير من المشكلات التي تعرقل حياة الإنسان، من خلال فهمها وتحديد العوامل المتحكمة فيها، ومن ثم التدخل للتأثير عليها بما ينسجم ورغبة الإنسان.

3. معايير كفاءة النظرية:

يحدد علي ليلة أربعة معايير يمكن الاحتكام إليها من أجل تحديد مدى كفاءة أي نظرية، وهي[1]:

أ. التحديد الدقيق للمفاهيم التي تعبر عن القضايا التي تحاول النظرية تناولها. ويعرف مكليلاند المفاهيم بأنها تمثيل مختصر لمجموعة من الحقائق، أي أنها رموز لفظية مميزة تعطى لأفكار معممة بهدف تجريدها عن الملاحظة العلمية للواقع.

ب. الاتساق الداخلي: بحيث تنسجم القضايا والافتراضات المتضمنة داخل النظرية مع بعضها العض، وألا يكون هناك تناقض ين مكوناتها.

ج.القدرة على الاستنباط: أي أنها يجب أن توضع قضاياها في شكل يجعل من الممكن الاشتقاق من التعميمات القائمة اشتقاقا استنباطيا.

---

[1]- علي ليلة: مرجع سابق، ص 46.

د. أن تكون القضايا التي تتضمنها النظرية خصبة ومثمرة، يمكن الاعتماد عليها من أجل تنمية المعرفة من خلال فتح الطريق أمام ملاحظات أبعد مدى.

4. أنواع النظريات:

هناك العديد من المعايير التي يتم اعتمادها من أجل تصنيف النظريات، حتى وإن كان هذا التصنيف غير دقيق للغاية. هناك تصنيفات تسعى لتقسيم النظريات بناء على محتواها العلمي، وأخرى تصنفها بناء على غايتها من فعل التنظير ذاته. ولهذا نجد التصنيفات التالية:

أ. تصنيف النظريات بناء على محتواها العلمي:

يمكن أن نستعرض في هذا الصدد تصنيف هيلموت فاغنر الذي يرى بأن مجمل التراث النظري للعلوم الاجتماعية يمكن أن يصنف إلى ثلاث فئات أساسية من النظريات هي[1]:

- النظريات الوضعية:

وتضم تحت رايتها العديد من النظريات الكبرى مثل النموذج الرياضي والسلوكية والبنائية الوظيفية والنظرية الإيكولوجية وغيرها، وتسعى جلها إلى تقليد نموذج العلوم الطبيعية في الممارسة العلمية بالاعتماد على لغة الرياضيات ودقتها.

- النظريات التأويلية:

تنطلق أغلب هذه النظريات من نظرية الفهم عند ماكس فيبر، وترى بأن للظاهرة الإنسانية والاجتماعية خصوصيتها المخالفة للظاهرة الطبيعية. وتضم عدة اتجاهات مثل نظرية الفهم الثقافي، النظرية التأويلية للفعل والتفاهم، ونظرية التفاعلية الرمزية والفينومينولوجيا ...إلخ.

- النظريات التقويمية غير العلمية:

ترفض أغلب هذه النظريات ما يسمى بالموضوعية في العلم وتدعو بالمقابل إلى استخدام توجهات الباحث الإيديولوجية ونظامه القيمي كأداة لوصف الواقع الصحيح، وليس مجرد وصف الواقع، وبسبب هذا الخيار أصح البعض ينزع عنها صفة العلمية. وتضم العديد من النظريات التي تتمحور حول الفلسفة الاجتماعية ونظرية الصراع ونظرية الإيديولوجيا الاجتماعية وغيرها.

ب. تصنيف النظريات بناء على الغاية من التنظير:

يقوم هذا التصنيف على تقسيم النظريات على أساس الغاية أو الهدف من فعل التنظير في ذاته، وتقسم النظريات تبعا لذلك إلى صنفين:

---

[1]- Helmut Wagner: Types of sociological theory: Toward a system of classification, American Sociological Review , Vol. 28, No. 5, 1963, pp. 737-738.

- النظريات الوصفية:

تنتمي أغلب هذه النظريات ما يسمى بالتيار الوضعي الذي يرى بأن مهمّة الباحث المنظر هي وصف وتفسير الواقع. وتنتمي أغلب نظريات الاتصال الجماهيري إلى هذا النوع لأنها متأثرة في أغلبها بالنموذج الوضعي الرياضي الذي يحاول بناء تصورات إحصائية وميكانيكية للظواهر الاتصالية في الواقع.

- النظريات المعيارية:

على خلاف النظريات الوصفية، فإن النظريات المعيارية لا تسعى لوصف الواقع، بل تقديم نموذج مثالي لكيفية سيره بشكل سليم، بحيث يجب تجاوز المشكلات الموجودة في الواقع من أجل أن يكون النسق المنظر له يسير بطريقة مثالية. ولعل أشهر النظريات في هذا الصدد نظرية الفضاء العمومي لجورغن هابرماس التي تحاول أن ترسم إطارا للديمقراطية الصحيحة.

4. أنواع النظريات:

النظريات الكبرى:

النظريات متوسطة المدى:

قراءات إضافية: